

الفصل الخامس

حركة الكون

الفصل الخامس

حركة الكون

مقدمة:

يتحرك الكون بما فيه في حركة مستمرة مقننة منذ بدء نشوئه إلى اليوم وإلى قيام الساعة . ويقف الإنسان - بما أتىح له من استخدام لوسائل التقنيات المطورة - أمام هذه الحركة مبهوراً وعاجزاً عن معرفة القوانين المنظمة لها . وإن دلت هذه الحركة الكونية المحكمة المقدره على شيء فإنها تدل على أنها ليست وليدة الصدفة كما يظن الملحدون ، كما أنها ليست حركة عشوائية أو ذاتية تلقائية ، بل هي حركة قضى الله تبارك وتعالى لها أن تكون ولا تخضع إلا للقانون الإلهي الأعظم المطلق للكون الذي سخر الله عناصره لمنفعة الإنسان . وكل ما في الكون من مجرات وسدم وكوكبات ونجوم وكواكب وأقمار في فلك يَسْبَحُونَ . وإن كل ما يتمثل على سطح الأرض ، بل وما يقع في جوفها هو في حركة مستمرة مقننة كذلك ، ويدور ويتحرك مع دوران الأرض نفسها ؛ يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القَمَرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلُّ في فلكٍ يسبحون ﴾ يس (٤٠) .

﴿ وهو الذي خلق الليل والنهارَ والشمسَ والقمرَ كُلُّ في فلكٍ يسبحون ﴾ الأنبياء (٣٣) .

وتبين الآيات القرآنية الكونية أن حركة كل عنصر من عناصر الكون تجري وتَسْبَحُ في مدار أو فلك خاص بها ، ولها مواقعها المحددة لها في السماء ، لتكون عظة وعبرة للناس أجمعين ، ودلالة من دلائل قدرة الله عز وجل في الخلق .

وأقسم الحق جل وعلا في آيات متعددة في القرآن الكريم بالكواكب السيارة التي تجري وتسبح في الفضاء على سنن مقدرة، ووفق نظام معين لا تتعداه سباحة من يرج إلى آخر كما قضى الله سبحانه لها أن تكون . وجاء هذا القسم الإلهي كثيراً في مطلع بعض الآيات الكونية في القرآن، وهو إشارات وومضات من نور تحت الإنسان على أن يتمعن ويتأمل في معانيها ويستطلع ويستبصر لما في الكون من دلائل القدرة وأن يستدل على وحدانية الخالق فاطر السماوات والأرض، وعلى ربوبيته وحده، وأن يزداد الإنسان يقينا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي خلق كل شيء، وقدر كل شيء بقدر. ويقصد بسباحة الأجرام السماوية، حركتها السريعة جداً والسهلة في الفضاء في الوقت نفسه، والذي يكاد لا يشعر الإنسان بها.

وقد تبين للعلماء أن سباحة الأجرام السماوية ليست في فضاء خاوٍ، بل هي تسبح في بحار من غازات كونية تتعلق فيها ذرات متعددة من الغبار الكوني، ومن مفتتات بقايا النجوم المندثرة. وجاء قسم الله عز وجل ببعض عناصر الكون في مطلع السور الكونية الكريمة الآتية :

﴿والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها﴾ الشمس (١ - ٢).

﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى﴾ الليل (١ - ٢).

﴿والضحى * والليل إذا سجى﴾ الضحى (١ - ٢).

﴿والفجر * وليالٍ عشر * والشفع والوتر﴾ الفجر (١ - ٣).

﴿والسما والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب﴾ الطارق

(١ - ٣).

﴿والسما ذات البروج * واليوم الموعود﴾ البروج (١ - ٢).

فدلائل قدرة الله عز وجل في خلق الكون وعناصره واضحة جلية للإنسان في كل عصر وزمان . ومع تقدم الإنسان علمياً وتكنولوجياً وحضارياً يتسع محيط رؤيته وأفاقه ، ويرى براهين جديدة وآيات متعددة من آيات الله عز وجل متمثلة أمام بصره في كل أرجاء الكون ، بل وتمثلة في كيان الإنسان نفسه . وعند بداية ظهور الحضارات البشرية كانت معرفة الإنسان عن أبعاد الكون محدودة للغاية ، ولكن مع التقدم العلمي المذهل ، والنقلة النوعية التكنولوجية التي توصل إليها الإنسان في القرن العشرين ، تحقق للبشرية الوصول إلى معرفة بعض القوانين التي تحكم المسافات والكشافات والزمن وحركة الأجسام وقوة جاذبيتها وكتلتها وطرق انقسامها وتفتت ذراتها ، ومع ذلك فإن معرفة ما يراه الإنسان من مجرات وكوكبات ونجوم في الفضاء السماوي الفسيح لا تزال معرفة محدودة الأبعاد . أما عن معرفته بما يتمثل في السماوات الأخرى العُلى فهي معدومة . وإذا حاول الإنسان أن يشحذ ذهنه ويجاور عقله ويستعين بكل ما تيسر له من وسائل علمية ليتعرف على كيفية نشأته هو بنفسه ، وبدء ظهوره على سطح الأرض ، سرعان ما يفشل في ذلك علمياً . ولا يستطيع الإنسان أن يقترح في هذا الشأن سوى نظريات ظنية ضعيفة القواعد والأركان ولا تدعمها أدلة يقينية . ولا يجد الإنسان بعد كل هذه المحاولات العلمية خيراً وملجأً أميناً سوى اللجوء إلى كلام الله الحق جل وعلا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا تخضع آيات الله سبحانه وتعالى في الكون أو حركتها ونظمها ونشأتها لقوانين من صنع البشر أو لعلم وضعي ، بل هي منظمة في حركة مقننة بحكمة وتدبير وقضاء من الله تبارك وتعالى العلي القدير ، الذي له ملكوت السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ؛ يقول الحق جل وعلا :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ألا إنهم في مِرية من لقاء رَبِّهِمْ ألا إنه بكلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿ فصلت (٥٣ - ٥٤) .

وتُظْهِرُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَنَّ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ لِبنِي الْإِنْسَانِ أَنَّهُ سَيُطْلَعُهُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى بَعْضِ مَلَامِحِ مِنْ أَسْرَارِ هَذَا الْكُونِ الْعَجِيبِ ، وَعَلَى بَعْضِ الْخَفَايَا فِي الْبَشَرِ أَنْفُسِهِمْ حِينَ تَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الْكَرِيمَ هُوَ الْحَقُّ أَنْزَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَدَى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . وَحَرْفُ «السِّينِ» فِي الْفِعْلِ «سَنُرِيهِمْ» يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ كَشْفِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ لِبَعْضِ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْآفَاقِ مِنْذُ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَإِلَى يَوْمِ الدِّينِ . وَتَوْضُحُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ عَطَاءَ الْقُرْآنِ عَطَاءٌ مُتَجَدِّدٌ وَمُسْتَمَرٌّ ، وَلَمْ تَنْتَهَ مَعْجِزَتُهُ أَيَّامَ نَزْوَلِهِ مِنْذُ نَحْوِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا ، بَلْ إِنَّ النَّاسَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ تَسْتَقْبِلُ وَتَتَلَقَّى - بِتَدْبِيرِ مَنْ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ - بَعْضَ أَسْرَارِ وَخَفَايَا هَذَا الْكُونِ ، وَتَتَعَرَّفُ بَعْضَ الْأُمُورِ الْمُبْهَرَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ . وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ قَدْ اكْتَشَفَ بَعْضَ النَّوَامِيسِ الَّتِي تُرْبِطُ كَوْكَبَ الْأَرْضِ بِبَقِيَّةِ هَذَا الْكُونِ الْفَسِيحِ وَمَا يَتِمُّثَلُ فِيهِ مِنْ بِلَايِنِ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ ، فَقَدْ بَدَأَ الْعِلْمُ يَزِيلُ الْحِجَابَ كَذَلِكَ عَنْ بَعْضِ أَسْرَارِ الْجِسْمِ الْبَشَرِيِّ وَعَجَائِبِ تَرْكِيْبِهِ وَخِصَائِصِ أَعْضَائِهِ وَوُضَائِفِهَا . وَلَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا يَجْهَلُ الْكَثِيرَ عَنْ خَبَايَا الْكُونِ وَالْكَثِيرَ أَيْضًا عَنْ خَبَايَا النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْجِسْمِ الْبَشَرِيِّ ، وَوَعْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لِلْإِنْسَانِ يَظَلُّ قَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

«لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ» :

مِيزَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَا وَهَبَ لَهُ مِنْ عَقْلِ مَفْكَرٍ لِيَتَدَبَّرَ فِي الْكُونِ وَلِيَتَأَمَّلَ عُنَاصِرَهُ الْمَخْتَلِفَةَ الْمَسْخَرَةَ لِيَنْتَفِعَ بِهَا فِي حَيَاتِهِ

ومعيشته على الأرض ، وليستدل على دلائل القدرة الإلهية . وإذا كانت سائر المخلوقات مسخرة بأمر الله جل وعلا لمنفعة الإنسان ، فإن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الاختيار فيما يراه نافعا له ، وفيما يقع عليه اختياره . وتحث الآيات القرآنية على استخدام العقل ، ليفكر الإنسان ويتأمل في الكون وعناصره ، بل وفي ذاته .

وقد احتار الإنسان منذ القدم ولا يزال حائرًا حتى اليوم في معرفة أصل المادة الأولية التي خُلق منها الكون . واختلف الفلاسفة الإغريق أصحاب المدرسة المادية في تحديد أصل هذه المادة . وأحدث النظريات العلمية اليوم ترجح بأن الكون كله كان يتألف في البداية من الغازات الساخنة السديمية Nebulae Gases . ولكن لا يستطيع العلم أن يدرك ماهية هذه المادة الأولية السديمية ، وما أصلها ومصدرها . وهكذا يقف العلم الوضعي عاجزًا أمام مثل هذه التساؤلات . فقد توصل العلماء إلى معرفة قوانين الجاذبية والمجالات الكهربائية والذبذبات الصوتية ، ولكنهم عجزوا عن تفسير معرفة أسباب حدوث الجاذبية أو معرفة أسباب وجود مجالات كهربائية أو كهرومغناطيسية . ويذكر الأستاذ هويل^(١) . أن العلم لم يقدم تفسيرات مقنعة لتكوين الكون وعناصره بالصورة التي نعرفها عنه اليوم ، ولا يستطيع العلم أن يتعرف المادة الأولية التي خلق منها الكون . ويؤكد أن كل هذه التساؤلات لا معنى لها ولا طائل منها ولا يمكن الإجابة عليها . وصدق قول الله تبارك وتعالى :

﴿ . . . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ الإسراء (٨٥) .

ويتحدث العلماء عن نتائج القوانين التي يتوصلون إليها بعد إجراء البحوث والتجارب العملية والمعملية ، ولكن لا يستطيع أحد منهم أن يفسر الكيفية التي

(١) فرد هويل : «مشارف علم الفلك» ، ترجمة إسماعيل حقي - دار الكرنك القاهرة - مجموعة الألف كتاب ، عام (١٩٦٣م) ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

هي عليها تلك القوانين الطبيعية . وباستخدام قانون «نيوتن» عن الجاذبية يمكن التنبؤ بالأماكن التي يحدث فيها كسوف الشمس وتحديد وقته، ولكن في الوقت نفسه لا يستطيع العلماء أن يفسروا أسباب حدوث الجاذبية بهذا النمط الذي تحدث به، فهذه المعلومات كلها تقع فيما وراء قدرات العقل البشري .

ويوضح فرد هويل كذلك أن خلق المادة قانون طبيعي وأن كل مادة مخلوقة لها خصائص مميزة تشكلها وتشكل بها . وخلق المادة عملية مميزة في الكون . وأن كل مادة لها تأثيرات أو مجالات منها المجال النووي الذي يربط أجزاء النواة بعضها ببعض الآخر، والمجال الكهرومغناطيسي الذي يسهل للذرات عملية امتصاص الضوء ومجال الجاذبية الذي يعمل على تماسك الأقمار بالكواكب، والكواكب بالنجوم، والنجوم بالمجرات . ويذكر هويل بأن المادة تخلق ذاتيا بتأثير من مادة أخرى، وهذا المجال الأخير هو الذي يسبب تمدد الكون . وفات «هويل» عند اعتباره «أن المادة تخلق ذاتيا» أن المخلوقات جميعا هي من صنع الخالق جل وعلا بمشيئته، وهو القائم عليها، وأن يستمع لقول الله تبارك وتعالى :

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الذاريات (٤٧) .

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴿ القمر ٤٩ - ٥٠ .

وخلق الله تبارك وتعالى الكون بما فيه عندما قضى له أن يكون بأيد وقوة وبتقدير مقتدر وبالحق . وتذكرنا الآيات القرآنية وتنبهنا في كثير من السور إلى أن لله ملك السماوات والأرض وما فيهن . فالكون كله بما فيه هو ملك لله سبحانه وتعالى وحده الذي سواه وخلق وفطره والله عز وجل وحده القدرة على أن يعيد خلق الكون من جديد وليس غيره مالكا لشيء فيه . وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، عالم الغيب والشهادة له الحمد وله الملك وهو على

كل شيء قدير. هذه التذكرة والإشارة الإلهية للإنسان هي آيات جاءت في عدة سور في القرآن منها سور الزمر والزخرف والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة؛ يقول الحق جل وعلا :

﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
الزمر (٤٤).

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . . ﴾ الزمر
(٤٦).

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الزخرف
(٨٢).

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الزخرف (٨٥).

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الصافات (١٨٠).

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة (١٠٧).

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ
قَانِتُونَ ﴾ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كُن فيكون
البقرة (١١٦-١١٧).

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ آل عمران
(١٠٩).

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إن في خلق
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آياتٍ لأولي الألباب * الذين
يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ آل عمران (١٨٩) -
(١٩١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ النساء
(١٢٦).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ النساء (١٣٢).
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ
تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء
(١٧٠).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ خاتمة
سورة المائدة (١٢٠).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة المائدة (٤٠).

فكل ما في السماوات والأرض هو ملك لله سبحانه وتعالى، فهو الذي يعطي
من يشاء ويمنع من يشاء، وعلى الإنسان ألا يقلق عندما ينتفع ببعض النعم
التي وهبها الله له أو لم ينتفع بها، فإن الله هو الذي يملك وهو الذي يعطي
وهو قادر على أن يعطي ما يريد لمن يريد.

والإيمان بالله سبحانه وتعالى هو تسليم لقدرات الله التي ليست فوقها قدرة،
ولعلم الله الذي ليس فوقه علم والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء. ويعتبر
بعض الناس ذلك عبودية وأن الدين في نظرهم عبودية. ويقول الشيخ
الشعراوي^(١) في ذلك: «نعم إن الدين عبودية لله سبحانه وتعالى، وفرق كبير

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي: «معجزة القرآن»، أخبار اليوم - القاهرة - ج ١٦/٢ - ١٧، (بدون تاريخ).

بين العبودية لله والعبودية للبشر. البشر عندما يستعبدك يريد أن يأخذ منك أو من قدراتك ليضمها إلى قدراته، ويجردك من الخير الذي تستطيع أن تحققه ليضمه إلى الخير الذي يملكه، فعبودية البشر هي تجريد للعبد من كل خير يستطيع أن يحققه لصالحه. أما عبودية الله سبحانه وتعالى فهي عبودية لتزيد من قدراتك وتمنحك الخير والبركة وتزيد من عطاء الله لك، فهي عبودية لصالحك، فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين، غني عن جهدك . . . غني عن مالك . . . والله سبحانه هو صاحب كل شيء وله ملك السماوات والأرض ومن فيهن».

كل ما في السماوات والأرض يُسَبِّحُ وَيَسْجُدُ لِّلَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ :

في مطلع كثير من السور في القرآن (سور الحديد والحشر والصف والتغابن والجمعة)، تنبه آياتها الكريمة إلى أن كل ما في السماوات والأرض يُسَبِّحُ وَيَسْجُدُ لِّلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

يقول تبارك وتعالى :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحديد (١).

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر (١).

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الصف (١).

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التغابن (١).

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ الجمعة (١).

كما جاء ذكر تسبيح الكون وسجود كل عناصره لله الخالق عز وجل في آيات متعددة وقعت داخل سور القرآن الكريم . فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الرعد (١٥) .

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء (٤٤) .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الحج (١٨) .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ النور (٤١) .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل (٤٩) .

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ الرحمن (١ - ٦) .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ﴾ الأنبياء (١٦) .

فتوضح هذه الآيات الكريمة أن كل ما في الكون يُسَبِّحُ بحمد الله وَيَسْجُدُ لجلالته ، فكل ذرة وحصاة وحجر وحب وورقة شجر وزهرة ونبته وثمره شجرة وحرشرة وزاحفة وحيوان ودابة على الأرض وسابحة في الماء وطائرة في الهواء وما نعلم من مخلوقات الله وما لا نعلم كلها تُسَبِّحُ بحمد الله بطريقتها ولغتها . ولكن الإنسان ذا العلم المحدود لا يفقه هذا التسبيح ؛ لأنه محبوب بصفاقة الطين ،

ولا يعلم كل أسرار الوجود الخفية، ولا يدرك كل النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير^(١).

كُلٌّ فِي قُلُوبِكُمْ يَسْبَحُونَ :

من بين خصائص الكون أن كل عنصر من عناصره وأن كل جزيء من جزيئات هذه العناصر - حتى ولو كان وزنه مثقال ذرة - هو في حركة مستمرة لا تتوقف أبدًا إلا بأمر الله عز وجل فاطر السموات والأرض وما بينهما والقائم عليها. ولا تخضع هذه الحركة للصدفة أو لأسباب عمليات النشوء الذاتي للمادة كما يلوح للملحدون، وإنما هي حركة مقننة ومقدرة تقديرًا إلهيًا حكيمًا، وهي أمر خارق لقوانين العلم الوضعي، الذي وضعه الإنسان، وتعرف عليه واكتشفه في محيطه الأرضي. فكل من الكواكب ومجموعات النجوم والكوكبات والمجرات تدور حول نفسها في حركة محورية وتدور في مداراتها في حركة انتقالية. بل إن الكون كله يتحرك حركة انتقالية حول مركز سحيق يبعد عن خيال البشر ولا يدري العلم الوضعي عنه القليل أو الكثير، ولا يقع إلا في علم الله وحده عز وجل.

وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يكتشف بعض قوانين حركة الأجسام وديناميكيتها في المحيط الأرضي، فإنه يعجز عن معرفة كثير من خبايا حركة السدم، والكوكبات، والمجرات، والنجوم، والمذنبات، ولا يزال يتخبط عند محاولته تحديد أسبابها ومسبباتها ونظم حركتها وسرعتها. وحتى الظواهر التي يشاهدها الإنسان على سطح الأرض ويحسب أنها جامدة ثابتة لا تتحرك كالجبال

(١) سيد قطب: «في ظلال القرآن»، الجزء الرابع، ص ٢٢٣٦.

والهضاب والبحار، هي في الحقيقة في حركة دائمة مع تحرك كوكب الأرض نفسه في حركتيه المحورية والانتقالية وحركاته الأخرى . (راجع الفصل السابع).

وهذه الحركة المستمرة المنتظمة التي لا تعرف الكلل أو الملل أو الخلل لكل عنصر من عناصر هذا الكون الفسيح الأرجاء ، هي تسبيح وسجود لله العلي القدير فاطر السموات والأرض وما بينهما ، ولكن الإنسان بما أوتي من علم محدود لا يفقه مثل هذا التسبيح . كما أن في حركة كل عنصر من عناصر الكون إفادة ونعمة وبركة ومنفعة للإنسان ساكن سطح كوكب الأرض ؛ وذلك لأن كل عناصر الكون مسخرة بأمر الله جل وعلا لخدمة الإنسان ولتيسير سبل حياته على سطح الأرض . ويقول المولى عز وجل :

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ يس (٤٠) .

﴿ وهو الذي خلق الليل والنهارَ والشمس والقمر كُلُّ في فلك يسبحون ﴾ الأنبياء (٣٣) .

وينتج عن الحركة المحورية للنجوم والكواكب قوة طرد مركزية تحفظ للنجم أو للكوكب موقعه في مداره على بعد ثابت بينه وبين النجم الأم . وتتمثل العوامل التي تؤثر في استمرار حدوث ربط النجوم والكواكب بعضها ببعض الآخر في الآتي :

١ - كتلة الشمس الأم .

٢ - الدوران المحوري للشمس .

٣ - قوة الجذب الشمسي .

٤ - كتلة كل كوكب تابع للشمس .

٥ - استمرار الدوران المحوري لكل كوكب في سرعة ثابتة له .

٦ - قوة الطرد المركزية لكل كوكب .

٧ - المسافة الفاصلة بين الشمس وكل كوكب .

وعلى الرغم من تعدد هذه العوامل وطول الفترة الزمنية لعملها منذ بداية نشوئها حتى اليوم، والتي تقدر ببلايين السنين، إلا أن الشمس والنجوم والكواكب ظلت تعمل بقدر، ولم يصبها خلل أو زلزل؛ ذلك لأنها تعمل وهي مسخرة بأمر الله عز وجل، ولا تخضع للصدفة أو العشوائية. وإن حدوث أي نوع من الاضطراب في أي عامل من العوامل السابقة الذكر يؤدي إلى تفكك قوى الربط بين الشمس الأم وكواكبها، وينجم عن ذلك انفجارها وانشطاراتها وانشقاقها، وهذا لا يحدث لها إلا إذا قضى الله سبحانه وتعالى فاطرها وخالقها بأن يكون. ويكون ذلك عند قيام الساعة؛ يقول تبارك وتعالى:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ سورة الزلزلة (١ - ٥) .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّت * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّت ﴾ سورة الانشقاق (١ - ٤) .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ سورة الانفطار (١ - ٣) .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ سورة التكوير (١ - ٢) .

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ سورة المرسلات (٨ - ١٠) .

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ
الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ سورة القيامة
(١٢-٧).

فيوم القيامة هو اليوم الذي يفقد فيه الكون توازنه وتنشط الكواكب والنجوم والأقمار بأمر من الله عز وجل ، وتتأثر الأرض بزلزالاتها الأعظم الموعود، ويخرج من باطنها موادها المعدنية الثقيلة، فتفقد توازنها وقوة جاذبيتها وموقعها في الفضاء .

وتنفلق السماء وتنفطر وتنشق وتطوى صفحاتها وتدرج في بعضها البعض كطي صفحات الكتاب ، وتلف السماء وترفع وتزال وتطمس النجوم ويذهب ضوءها وينشق القمر يوم الساعة ، ويكون لله تبارك وتعالى يومئذ المستقر .

ونتيجة للحركة المحورية للشمس تتركز الغازات التي تتفاعل نووياً في جوفها وينشأ عنها قوة جذب عظمى (تبعاً لكتلتها الهائلة الحجم والتي تقدر بنحو ٣٣٣ ألف مثل لكتلة الأرض) تؤثر بدورها في قوة جذب الكواكب التابعة لها وربطها في فلكها وتشكيل ما يعرف باسم المجموعة أو النظام الشمسي Solar System . ويستمد الإشعاع الشمسي قوته من الطاقة الهائلة المنبثقة من حدوث التفاعلات النووية في باطن الشمس . (راجع الفصل الثالث) ، وتولد الطاقة الشمسية باشتقاق ذرات الهليوم من ذرات الهيدروجين .

وبدون استمرارية الحركة المحورية للشمس يتوقف تكوين الطاقة الشمسية ، ولا تتجدد مع الزمن ، ولكانت الشمس نجماً خامداً منذ عدة آلاف من ملايين السنين ، ولفقدت الشمس قوة جاذبيتها ولتفككت عوامل الربط بين الشمس وكواكبها التابعة لها في الفضاء السماوي . هذا الربط بين الكواكب والنجوم الذي يحفظ لكل منها موقعه ومداره في السماء . يقول المولى عز وجل :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَيْتَلْمُونَ عَظِيمٌ ﴾ الواقعة (٧٥-٧٦).

ويستدل الإنسان من دراسته لمواقع النجوم وآيات الله في الكون على وجود توازن معجز بينها جميعا، وأن الاختلاف في حجم هذه النجوم والكواكب وكذلك في كثافتها وتركيبها الغازي والمعدني وكتلتها وطاقتها وسرعاتها في مداراتها والمسافات الهائلة الشاسعة البعد الفاصلة بين كل منها هو اختلاف بقدر معجز قدره تبارك وتعالى تقديراً حكيماً معجزاً ليكون آية بينة للناس أجمعين إلى يوم الدين .